دور الخلفاء الراشدين في تأصيل الأدب الإسلامي

د. أحمد محمد حنطور - مصر (*)

من المسلم به أن الأدب الإسلامي بمفهوم المذهب الأدبي لا الإطار الزماني أو المكاني - أعني به الأدب الذي جاء وفق تصور الإسلام للكون والإنسان والحياة - ترجع أصوله إلى أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في ترسيخ دعائم هذا الأدب.

وكنت قد ذهبت من هذا المنطلق إلى ضرورة أن تستمد نظرية الأدب الإسلامي مبادئها من هذين النبعين، وعدم الوقوف في دراسته عند منظور المناهج الاستشراقية، فإن تحقيق ذلك أدعى إلى تحديد هويته وتأطير معالمه على نحو قويم، وأن نهيئ لتلك النظرية أن تقف قامة سامقة، وهامة سامية في مواجهة غيرها من المذاهب والتيارات الأدبية، وذلك في كتابنا « خصائص الأدب الإسلامي في ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف ».

(*) أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

واليوم نأتي إلى ناحية جديدة نرى أن لها دوراً في تأصيل الأدب الإسلامي وتثبيت دعائمه في نفوس الشداة والمتلقين، وإضافة رافد جديد إلى مقومات الأدب الإسلامي، وهي ناحية الخلفاء الراشدين وجهودهم في هذا الميدان الفسيح.

وقد وقف الدارسون أمام شواهدهم القولية ومواقفهم العملية بالتحليل الأدبي والاستنتاج النقدي في صور جزئية، ولم يحاول أحد منهم[1] – فيما أعلم- أن يصوغها في إطار عمل متكامل يحدد أبعاد أثر هؤلاء الخلفاء في التأصيل لهذا الأدب سواء من ناحية عناصر الفن القولي أو من ناحية مسائله أو قضاياه.

وينبعث حديثنا في هذا الميدان من مسلمة إدراك الخلفاء الراشدين لحقيقة دورهم في القيام بتبعات الخلافة، وأنه لا يقف عند حد تدبير نظام الحكم وسياسة الدولة الإسلامية مع من يجاورها من البلدان، وإنما يتخطاه إلى تطبيق منهج الله وقيم الدين الحنيف في شتى مجالات الحياة القولية والعملية.

ولا شك أن الذين انضموا إلى ركب الدين الجديد منهم من استقر الإيمان في قلبه واستطاع أن يضع حياته في قالب الالتزام بمبادئ الدين القويم بصورة أو بأخرى، ومنهم من كان يجاهد نفسه فيغلبها أو تغلبه، ومن ثم تأتي قيمة دور الخلفاء الراشدين في جانب الفن القولي وتثبيت أساسه على النهج السديد.

ومن يراجع موقف بعض الخلفاء الأمويين من الشعر والشعراء وما نتج عنه في عصرهم من توجه نحو إحياء القيم العربية الجاهلية، وظهور ألوان من الخروج على النهج الإسلامي الرشيد في الشعر (شعر الخمر والعصبية) يدرك طبيعة هذا الدور ومداه، وأثره في توجيه الشعر والشعراء نحو الأدب الإسلامي في الشكل والمضمون والتصور والغاية.

صور متعددة:

نصوص من خطب الخلفاء الراشدين:

وتتمثل معالم هذا الدور وأبعاده في صور متعددة، نذكر منها أولاً: صورة النتاج الأدبي لهؤلاء الخلفاء، والذي تمثل في الخطب والوصايا، والكتب والعهود، والحكم والتوقيعات، والحوار والجدل. فقد جاء تطبيقاً لما تلقوه من تعاليم الوحي، وما سمعوه في مدرسة النبوة، مما جعله يشكل دوراً عملياً في اقتفاء المنهج، ويحمل لنا زاداً وفيراً من تلك النماذج التي جاءت ترفل في حلل الدين، وتحفل برواء الفن وبلاغة القول، وتحث على متابعة الخطى لمن أراد أن ينهل من نمير الأدب الإسلامي ورسالته النبيلة في الحياة.

فمن خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله:«أما بعد: أيها الناس! فإني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع القوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله

فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[٢].

ومن خطب عمر بن الخطاب بالشام قوله رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ:«يا أهل الإسلام، إن الله قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، ووزّثكم البلاد، ومكّن لكم في الأرض، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر النعم، وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط عليهم عدوهم»[٣].

ومن خطب عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد أن بويع بالخلافة:«أما بعد، فإني قد حملت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة وقد شهيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها»[٤].

ومن خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله:«أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار، أفلا تائب من خطيئة قبل منيته ؟ ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ؟ ألا إنكم في أيام أمل ومن ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ولم يضره أمله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وأضره أمله.

ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها. ألا وإن من لم ينفعه الحق يضرره الباطل، ومن لا يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى. ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً»[٥].

فهذه الخطب – فيما نرى- ترتبط ارتباطاً وثيقاً في التفكير والتعبير والتصوير والرسالة بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف. ففي جانب التفكير نلمح امتداد الخيط الفكري واتصاله بهما في حديث أبي بكر الصديق عن أثر القعود عن الجهاد وشيوع الفاحشة في المجتمع. وفي حديث عمر بن الخطاب عن وجوب الشكر وترك المعصية، وفي حديث عثمان بن عفان عن مقومات منهجه في الحكم ورأيه في الدنيا، وفي حديث علي بن أبي طالب عن الدنيا والآخرة، والأمل والأجل، وطلب الجنة والفرار من النار، واتباع الهوى والتزود للآخرة.

وفي جانب التعبير نرى التطلع في النسيج النصي للخطب إلى هذين النبعين يبدو بكثرة في إطار من الاقتباس والتضمين اللذين يطلان بصورة واضحة في خطب عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، أو الالتقاء مع روح الإسلام العامة ومبادئه على النحو الذي يتجلى في خطبة أبي بكر الصديق.

وفي جانب التصوير نجد تعانق التصوير وما جاء في الحديث الشريف في تصوير عثمان بن عفان الدنيا بأنها خضرة حلوة محببة إلى الناس، وتصوير علي بن أبي طالب الدنيا في إقبالها وإدبارها، والأجل وملاحقته الأمل، وموقف الغافل من الجنة والنار، والتزود للآخرة.

وفي جانب الرسالة يرى القارئ توافقها مع ما يدعو إليه الإسلام من مثل ومبادىء، ويهدف إلى تحقيقه من الصفاء الروحي والسمو النفسي، ويلمس سعيها الحثيث إلى تثبيت دعائم الإسلام في العقول والقلوب حفاظاً على خصائص الأمة ونأياً بها عن الذوبان في مغريات الحياة. وإذا تتبعنا ما جاء في سائر نتاج الخلفاء الراشدين من الكتب والحكم والحوار نجد أنفسنا أمام زاد وفير من التراث الأدبي يلتقي مع تعاليم الإسلام، ويؤسس لما يجب أن تكون عليه عناصر الفن في هذه الأجناس الأدبية[٦].

ملامح النقد الأدبي الإسلامي لدى الخلفاء الراشدين:

وتأتي الصورة الثانية ماثلة في ملامح النقد الأدبي الإسلامي الذي ظهر في نقدات آراء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الشعر والشعراء التي ترددت روايتها في مصادر الأدب العربي، وهي تدور بين الحكم والتوجيه والتماس الدليل. فمن ناحية الحكم تروي كتب الأدب عن عبدالله ابن عباس أنه قال: «قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنشدني لشاعر الشعراء، قلت: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولو كان حمد يخلد الناس لم تمت
ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت: ذاك زهير. قال: فذاك شاعر الشعراء. قلت: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه»[٧]. وهو حكم يمتد ليشمل الشكل الفني، والالتزام برسالة الشعر، والصدق في المضمون. وذلك يلتقي – كما نرى- مع طبيعة الأدب الإسلامي في التعبير والتفكير والرسالة.

ومن ناحية التوجيه فقد روي أنه جاء سحيم عبد بني الحسحاس، «وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله:

عميرة ودع إن تجهزت غاديا
كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال عمر: لو قلت شعرك مثل هذا أعطيتك عليه، فلما قال سحيم:

فبات وسادانا إلى علجانة
وحقف تهاداه الرياح تهاديا
وهبت شمال آخر الليل قرة
ولا ثوب إلا درعها ورداثيا
فما زال بردي طيباً من ثيابها
إلى الحول حتى أنهج الثوب باليا

فقال عمر: ويلك إنك مقتول!!؟ [٨].

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه يرى تفضيل الشعر الذي يعنى بتآزر المضمون الهادف مع الشكل الفني على الذي يكون الشاعر فيه مصروفاً إلى تقديم الشكل على المضمون.

ويعلق أحد الدارسين على ذلك الموقف بقوله:«وعمر في تعليقه في مطلع القصيدة راض كل الرضا على المنهج الشعري حتى إنه أراد أن يعطي عليه العطاء، وهو في تعليقه على الأبيات راض كل الرضا عن السهولة والجمال اللذين يلوحان في تصوير ليلة الشاعر، ولهذا كان تعليقه عليه: ويلك!، وهي كلمة تقال على ما تتضمن من إشفاق وزجر، تتضمن أيضاً قبولاً لهذه العذوبة المستحبة التي جرت على لسان شاعر مسلم تعلق في صدر قصيدته بالإسلام، ثم مضى فيها خالياً إلى نفسه وذكرياته الحلوة في ليلة قضاها مع حبيبته على غير تصريح بالفحش والفجور»[٩].

ونحن نرى أن عمر رضي الله عنه بهذا لم يغادر مذهبه النقدي، بدليل أنه تنبأ بقتل الشاعر. ومن ثم فإن التنبؤ بقتل سحيم – كما حدث– يرجع إلى تقديم الشاعر الشكل الفني على المضمون الهادف؛ والتصريح في تشبيبه بما يؤدي إلى القتل وإن أتى في معرض جميل.

ومن ناحية التماس الدليل ما ورد عن قدوم الزبرقان بن بدر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستعديه على الحطيئة حين هجاه، وأنشد أبيات الحطيئة، ومنها قوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال له عمر: ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟ قال: إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا، ثم أرسل (عمر) إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك، فقال: لم يهجه بل سلح عليه !. فحبسه عمر وقال: يا خبيث، لأشغلنك عن أعراض المسلمين»[١٠].

ويروي ابن رشيق في العمدة مثل ذلك عن عمر بن الخطاب عندما هجا النجاشيُّ بني العجلان بقصيدته التي قال فيها:

وما سمي العجلان إلا لقولهم:

خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقد أخذ فيه رأي حسان بن ثابت مع علمه بهجائهم ثم حده[١١].

ومن نقدات علي بن أبي طالب ما رواه صاحب الأغاني عن رأيه رضي الله عنه في أشعر الناس، قال:«كان رضي الله عنه يفطر الناس في شهر رمضان، فإذا فرغ من العشاء تكلم فأقل وأوجز فأبلغ، فاختصم الناس ليلة حتى ارتفعت أصواتهم في أشعرالناس، فقال علي رضي الله عنه لأبي الأسود الدؤلي: قل يا أبا الأسود، فقال أبو الأسود، وكان يتعصب لأبي داؤد الإيادي: أشعرهم الذي يقول:

ولقد أغتدي يدافع ركني
أحوذي ذو ميعة إضريج
(الأبيات)

فأقبل على الناس فقال: كل شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد، وغاية واحدة، ومذهب واحد في القول، لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وإن يكن أحد أفضلهم، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس ابن حجر، فإنه كان أصحهم بادرة، وأجودهم نادرة»[١٢].

وفي رواية ابن رشيق:«لأني رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة»(جـ١، ص٤٢).

وهذه النقدات التي وقفنا عليها تلتقي مع ما يفاد من القرآن الكريم والحديث الشريف في التأسيس لمقومات الأدب الإسلامي الرشيد، فقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن بلاغة النص تكمن في سلاسة العبارة ووضوح الغاية من الكلام والصدق في القول، وتلك قيم نقدية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعيار الأخلاقي في النقد الأدبي وموقف الرسول ﷺ في توجيه الشعراء مع البصر بحقيقة الشعر[١٣]. فقد تطلع فيها إلى ما قرره الذكر الحكيم من ذم الشعراء الذين يهيمون وراء الهوى، ومدح هؤلاء الذين يستظلون براية الإيمان في القول ويدعون إلى الخير والحق والفضيلة في أشعارهم في قوله تعالى:﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾(الشعراء).

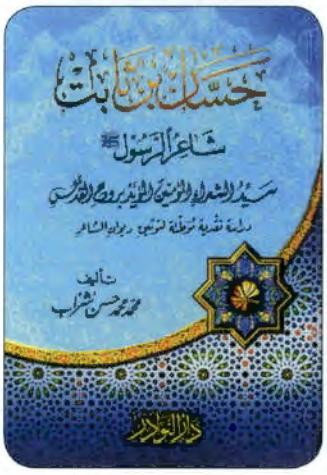

وإلى ما أخبر به عن القرآن الكريم بقوله:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾(القمر)، ووصفه في موطن آخر بقوله:﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾(الزمر). وإلى ما حدده الرسول ﷺ من عدم المبالغة في المدح التي تخرج عن دائرة الحق- فيما رواه الدارمي - بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله».

وعمر رضي الله عنه في قوله عن زهير يدل على إدراكه لقيمة الشكل الفني مع المضمون الهادف في البناء الشعري، بل إن التأمل في قول عمر ابن الخطاب يفتح الباب أمام القول بأهمية الصدق الفني في النص الأدبي، وأنه بارتداد الوصف إلى الموصوف ووجوده فيه لا يخرج النص من الصدق إلى الكذب وإن أبرزه الشاعر في ثوب من المبالغة المقبولة، ويشهد لذلك ما رواه ابن رشيق في العمدة:«أن رجلاً قال لزهير: إني سمعتك تقول لهرم:

ولأنت أشجع من أسامة إذ
دُعِيَتْ نزال ولج في الذعر

وأنت لا تكذب في شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد؟ فقال: إني رأيته فتح مدينة وحده، وما رأيت أسداً فتحها قط، فقد خرج لنفسه طريقاً إلى الصدق، وبعداً عن المبالغة[١٤].

وموقف عمر رضي الله عنه من النجاشي والحطيئة موقف المسلم المسؤول عن إقامة الدين وترسيخ دعائم الطهر والفضيلة، والحريص على أن يجعل الالتزام بالمنهج كلاً متجاوب الأجزاء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام:)، ومن ثم فإنه حين التمس الدليل على كل منهما من حسان ابن ثابت التمسه من منطلق تلك المسؤولية وذلك الحرص، ولذا فقد وجدنا ابن رشيق يعلق على موقفه من النجاشي بقوله:«وكان عمر رضي الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكنه أراد أن يدرأ الحدود بالشبهات»(العمدة جـ١، ص٥٢). وقريب من هذا ما علق به ابن سلام على موقفه من الحطيئة في قوله:« وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان، ولكنه أراد الحجة على الحطيئة»(الطبقات جـ١، ص١١٦).

وفي هذه السبيل فإننا نجد قول علي بن أبي طالب في تقديم امرئ القيس على غيره من شعراء الجاهلية ينطلق من تفضيل قول الشعر لذاته لا أن يكون طمعاً أو خوفاً، فإن ذلك مما يجعل الشاعر يحيد عن الصواب، وأن يكون ذلك عن ملكة مواتية وطبع شعري أصيل ينأيان بصاحبهما عن التكلف والفضول، وأن يقوم على صحة الابتكار وجودة الإبداع، وهو من هذه الناحية يتفق في وجه من الوجوه

مع رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تجديد امرئ القيس بقوله:«سابق الشعراء، خسف لهم عين الشعر»، ويلتقي في وجه آخر وما جاء عنه في كتب الأخبار من قول الرسول ﷺ:«هو قائد الشعراء إلى النار»[١٥]. - وإن ضعف هذا القول رواة الحديث الشريف – من حيث دلالته على ضرورة ألا ينأى السبق الفني بالشعر عن رسالته النبيلة في الحياة.

◄◄ موقف الخلفاء الراشدين من بعض الشعراء الخارجين على المنهج:

وتتمثل الصورة الثالثة في موقف الخلفاء الراشدين من الشعراء الذين حاولوا أن يخرجوا على المنهج وأن يستجيبوا لهواتفهم النفسية في صوغ الشعر بعيداً عما نادى به الدين الحنيف من عفة في القول، والنأي عن الفحش في الكلام. وتلك صورة فسح فيها المدى ليشمل عديداً من الأغراض الشعرية والمواقف غير السوية.

ومن ذلك ما مر بنا- في الصورة السابقة- من أن الحطيئة عندما هجا الزبرقان بن بدر فاستعدى عليه عمر بن الخطاب، وسأل عمر رضي الله عنه حسان ابن ثابت في ذلك، فأخبره حسان أنه هجاه وسلح عليه، فحبسه عمر لذلك، وما زال عمر بن الخطاب يتعهد الحطيئة بالتهذيب والتقويم- بعد أن أفرج عنه من محبسه- ليحمي من أعراض المسلمين، حتى قال الحطيئة في قصيدة توجه بها إلى عمر رضي الله عنه:

ومنعتني شتم البخيل فلم يخف
شتمي فأصبح آمناً لا يفزع

وأخـذت أطـرار الـكلام فلم تدع
شتما يضر ولا مديحاً ينفع[16]

ويتشدد رضي الله عنه في محاربة الغزل الماجن والتعريض بالنساء،«فقد مر رجل من مزينة بباب رجل من الأنصار، وكان يتهم بامرأته، فتمثل ببيت علقمة بن عبدة:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم
(أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم)

فاستعدى رب البيت عليه عمر، فقال له عمر:ما أردت ؟ قال: وما علي إن أنشدت شعراً ! قال: قد كان له موضع غير هذا، ثم أمر به فحد»[17].

وأمر رضي الله عنه بحبس أبي محجن الثقفي لتغنيه بالخمر، فحبسه سعد بن أبي وقاص في بلاد فارس، وذلك بقوله:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة
تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني
أخاف إذا ما مت ألا أذوقها[18]

وعندما هجا ضابئ بن الحارث البرجمي بني نهشل ورمى أمهم بالكلب، استعدوا عليه عثمان بن عفان، فعنفه على قوله فيهم بقوله: ويلك! ما سمعت أحداً رمى امرأة من المسلمين بكلب غيرك ! وإني لأراك لو كنت على عهد رسول الله ﷺ لأنزل الله فيك قرآناً، ولو كان أحد قبلي قطع لسان شاعر في هجاء لقطعت لسانك، ثم حبسه في السجن، ولم يزل في السجن حتى مات[19].

ولم يقف الأمر عند حد النهي عن بعض الألوان من فنون القول المختلفة، بل تخطى ذلك إلى الدعوة إلى الألوان التي جاءت متوافقة مع المنهج وتهذب المشاعر وترقى بالأحاسيس، فقد روي أن بعض الناس شكوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن إماماً في حيهم كلما صلى بهم صلاة العصر جلس في المسجد يغني، فاستعظم الأمر وأمر بإحضاره لمجلسه، فلما حضر قال له عمر: ما هذا الذي بلغني عنك ؟ قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: إنك كلما صليت العصر جلست في المسجد تغني!! قال: يا أمير المؤمنين، إنما هي أبيات أعظ بها نفسي! فقال: أسمعني إياها، فأنشأ يقول:

وفـــؤادي كـلـمـا عـاتـبـتـه
عـاد في الـلـذات يـبـغـي تـعـبـي
لا أراه الـدهـر إلا لاهـيـا
في تمـاديـه فـقـد بـرح بـي
يا قرين السوء ما هذا الصبا
فـنـي الـعـمـر كـذا في الـلـعـب
نفس لا كنت ولا كان الهوى
راقـبـي المـولى وخـافي وارهـبـي

فجعل عمر رضي الله عنه يكرر: نفس لا كنت ولا كان الهوى، ويبكي ويقول: راقبي المولى وخافي وارهبي، ثم قال: من كان منكم مغنياً فليغن بمثل هذا، فمثل هذا موعظة وليس بغناء[20].

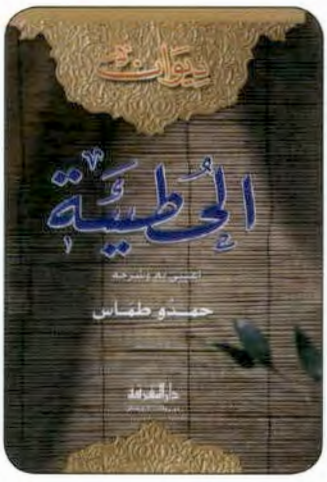

أثر الخلفاء الراشدين في الشعر والشعراء ونتيجته:

وفي هذه الصورة فإننا نذكر ما أفاضت به كتب الأدب العربي من حب العرب للشعر وطربهم لجيده وحثهم على تعلمه وروايته، يستوي في ذلك الخلفاء وغير الخلفاء، فذلك أمر فطري غرس في نفوس القوم حتى جاء في الحديث الشريف

أنه «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين». ومن ثم فإن ما قام به عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما في تلك الصورة يدلل على أن حب الشعر وتذوقه والإعجاب بجيده لم يمنعا عمر وعثمان من إقامة الحد على ذوي الفحش في القول الشعري، وحمل الشعراء على الالتزام بقواعد المنهج والتحلي بمبادئه.

بل إن استعداء الناس عمر وعثمان رضي الله عنهما على من أساء إليهم في القول يدل على ظهور موقفهم لدى الشاكين وثقتهم في موقفهما من الحفاظ على الفضائل والبعد عن الرذائل، وصدورهما في موقفيهما عما تعلماه من روح الإسلام وموقفه من الشعر والشعراء تبعاً لمضمون القول وغاية الكلام، ومن ثم وجدنا عمر بن الخطاب الذي أقام الحد على المزني، وحبس الحطيئة وأبا محجن، يهتز لقول الإمام الذي يعظ نفسه بشعره ويتأثر بما يدعو إليه ويوصي بأن يكون هذا سبيل من أراد الغناء، فهو كما قال موعظة وليس بغناء.

النتيجة والأثر:

وتبدو النتيجة واضحة جلية في اقتداء الأدباء والخطباء بنهج الخلفاء الراشدين في نتاجهم الأدبي، وفي تأثر الشعراء بالمواقف الحازمة للخلفاء الراشدين في وجه الشعراء الخارجين على المنهج، وفي الحصاد الشعري الملتزم بآداب الإسلام وروحه السامية.

ذلك بأن الأدباء وجدوا الخلفاء الراشدين في حرص على الاتباع في آدابهم، وحفاظ على القيم التي ورثوها في خطب الرسول ﷺ ورسائله وأحاديثه، ومن ثم فإن نتاجهم الأدبي يعد حلقة مهمة في مراعاة مبادئ الإسلام في النتاج الأدبي، وظل البلغاء جيلاً بعد جيل يتوارثون ذلك في خطبهم وأقوالهم حتى صار ذلك النهج ديدناً وتقليداً مرعياً لدى كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، حتى إننا إذا تجاوزنا السنين والأعوام للنظر في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز نجد ظلال ذلك النتاج تطل علينا في أقواله، بل وفي مواقفه ونقداته التي جاءت تحمل مقومات نقد الخلفاء الراشدين، على النحو الذي يبدو في خطبه، وفي موقفه من الشعراء المداحين حين حجب نفسه وعطاءه عنهم، وفي نقده لشعر الأحوص وعمر بن أبي ربيعة[٢١].

وفي تأثر الشعراء بموقف الخلفاء الراشدين فقد أحجم هؤلاء الشعراء الذين تسول لهم أنفسهم الخروج على آداب الدين في الشعر عن القيام بذلك في صنيعهم واعترفوا بذلك في أشعارهم، وقد مر بنا قول الحطيئة في ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ومنعتني شتم البخيل فلم يخف
شتمي فأصبح آمناً لا يفزع
وأخذت أطرار الكلام فلم تدع
شتماً يضر ولا مديحاً ينفع

وامتد ذلك التأثير إلى غيرهم من الولاة مع هؤلاء الشعراء، فعندما هجا سويد بن كراع العكلي بني عبد الله بن دارم واستعدوا عليه سعيد بن عثمان بن عفان، فهرب ومازال متوارياً حتى أمنه وأخذ نفسه

بما عاهده عليه من ألا يعود إلى مثل ذلك، وعبر عن مراجعته لنفسه في شعره حتى لا يؤخذ من قبله بقوله:

أبيت بأبواب القوافي كأنما
أصادي بها سرباً من الوحش نزعا
إذا خفت أن تروى علي رددتها
وراء التراقي خشية أن تطلعا
وجشمني خوف ابن عفان ردها
فثقفتها حولاً حريداً ومربعا
وقد كان في نفسي عليها زيادة
فلم أر إلا أن أطيع وأسمعا[٢٢]

وفي بيدر الحصاد الشعري فإننا نرى أثر النهج الإسلامي وتصوره للكون والإنسان والحياة كان واضحاً فيه، بحيث يمكن القول: إن الأدب العربي في عصر النبوة والخلفاء الراشدين كان في جملته أدباً دينياً يراعي قيم الإسلام ومبادئه في المضمون والتفكير والتعبير والتصوير.

ودعنا من تلك النماذج التي جاءت على لسان أهل الردة والصدام مع المنهج، فإن الذي نهدف إليه هو التعرف على الأثر الإسلامي في تلك النماذج الأدبية التي صدرت عن هؤلاء الشعراء الذين انضووا تحت لواء الإسلام ووجدوا في سموق التعبير في ظلاله، وفي صرامة الخلفاء الراشدين ما يحمل على الاستظلال بما يرفرف به هذا اللواء من قيم نبيلة ومبادئ سامية وصور محلقة في سماء الأدب الهادف الجميل، حتى إن أحد الشعراء الذين كانوا يتعلقون بالمرأة في حياتهم، ويتشببون بها في شعرهم وهو حميد بن ثور الهلالي عندما علم بإخبار عمر ابن الخطاب ألا يشبب أحد بامرأة إلا جلده، تحول من التصريح إلى التلويح، وكنى عن المرأة بالسرحة (شجرة لا شوك لها يستظل بظلها)، وشبب دون أن يصل إلى المجون أو الاستهانة بحدود الدين[٢٣].

ولم يكن صنيع الخلفاء الراشدين ليقف حجر عثرة في طريق المد الشعري فإنهم لم يحاربوا الشعر على إطلاقه وإنما أرادوا أن ينحوا عنه ما يسيء إلى هذا الفن الأصيل، ومن ثم زخر عصر الخلفاء بعيون من قصائد الشعر العربي التي تشارك في الأحداث، وتصور المواقف، وتعبر عن

قضايا النفس وطوايا الوجدان في شعر يجمع بين حذق في الصنعة وسمو الرسالة، ومن يقرأ – على سبيل المثال- في أشعار: الشماخ بن ضرار الذبياني، وعمرو بن معديكرب الزبيدي، وأبي خراش الهذلي، وأبي ذؤيب الهذلي، ومتمم بن نويرة، والقعقاع بن عمرو التميمي، وعاصم بن عمرو التميمي، ونافع بن الأسود المعروف بأبي نجيد، وزيد الخيل الطائي، وربيعة بن مقروم الضبي، والنمر بن تولب، وخفاف بن ندبة السلمي، وأبي زيد الطائي، من خلال أشعارهم المجموعة وأخبارهم المنثورة في كتب المغازي والطبقات والتاريخ[٢٤]؛ يزدد يقيناً بثراء الفن الشعري، ويتأكد لديه بكل ما سبق ما ذهبنا إليه من عظم الدور الذي قام به هؤلاء الخلفاء في التأصيل لهذا الأدب الرشيد■

الهوامش:

(١) للدكتور وليد قصاب بحث في أكثر من ثمانين صفحة عن (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) ناقدا، وهو منشور في كتابه «شخصيات إسلامية في الأدب والنقد». كما جمع آراءه النقدية التي زادت على ستين رأيا في كتابه «النقد العربي القديم: نصوص في الاتجاه الإسلامي والخلقي»(التحرير).

(٢) سيرة النبي ﷺ. عبد الملك بن هشام. دار التحرير للطبع والنشر. جـ٤، ص٢٦٨.

(٣) جمهرة خطب العرب. أحمد زكي صفوت. دار الكتب العلمية. جـ١، ص٢٥٦.

(٤) تاريخ الطبري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. جـ٤، ص٤٢٢.

(٥) نهج البلاغة. شرح الإمام محمد عبده. دار ومطابع الشعب. ص٥٤.

(٦) ينظر في هذه الأجناس: أدب الخلفاء الراشدين. د. جابر قميحة. دار الكتب الإسلامية. ص٥١، ١١٠، ٢٠٢، ٢٨٣.

(٧) العمدة لابن رشيق. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. جـ١، ص٩٨، الأغاني. جـ١٠. ص٢٩١.

(٨) طبقات فحول الشعراء لابن سلام. تحقيق: محمود محمد شاكر. جـ١، ص١٨٨. والعلجانة: شجرة قاتمة الخضرة ليس لها ورق، وإنما هي قضبان كالإنسان القاعد، والحقف: ما استطال واعوج وأشرف من الرمل.

(٩) مجلة الوعي الإسلامي. عدد جمادى الأولى ١٣٨٥هـ. مقال ابن الخطاب يوجه الشعراء. ص٦٥.

(١٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق: أحمد محمد شاكر. جـ١، ص٣٣٤.

(١١) العمدة لابن رشيق. جـ١، ص٥٢.

(١٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. جـ١٦، ص٣٧٧. وأحوذي ذو ميعة إضريج: حصان نشيط سريع.

(١٣) ينظر: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي. د. محمد بن مريسي الحارثي، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ١٩٨٩م، ص٦٣.

(١٤) العمدة لابن رشيق. جـ١، ص٩٩. وينظر في قضية الصدق والكذب: المبحث الثاني من هذا الكتاب، ص٦٨.

(١٥) ينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، جـ١، ص١٣٢.

(١٦) ديوان الحطيئة. تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه. مكتبة الخانجي. ص٢٨٩.

(١٧) طبقات فحول الشعراء. ابن سلام. جـ١، ص١٤٠.

(١٨) تاريخ الطبري. جـ٣، ص٥٤٩. وقد حبسه عمر رضي الله عنه وإن لم يشكه أحد لأن خروج الشاعر يتعلق بالمنهج العام، أما إذا كان الخروج يتعلق بحق خاص من حقوق العباد فإنه لم يكن ليحاكمه إلا بعد أن يرفع الأمر إليه، وهذا – فيما نرى- هو التعليل لموقفه من الحطيئة والمزني وموقفه من سحيم عبد بني الحساس.

(١٩) طبقات فحول الشعراء. السابق. ص١٧٤.

(٢٠) المقتطف من عيون الشعر. محمد علي الصابوني. دار القلم بدمشق. ص١٢٤.

(٢١) ينظر في نقداته: مجلة الأدب الإسلامي. ع٣٢-١٤٢٣هـ. مقال عمر بن عبد العزيز ناقداً. ص٥٦.

(٢٢) البيان والتبيين. أبو عثمان الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. جـ٢، ص١٢.

(٢٣) ينظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. جـ٤، ص٣٥٦.

(٢٤) ينظر: في الأدب الإسلامي. قضايا ومفاهيم للكاتب. مطبعة التركي. ط٢. ص٣٣.

يا مكة الخير

محمود مفلح - فلسطين

يطير قلبيَ حتى يلثم الحجرا ... يا مكة الخير إني جئت معتمرا

أتيت من آخر الدنيا على سفرٍ ... وقد نسيت على أعتابك السفرا

أتيتُ ممتلئا شوقاً وقافيتي ... طارت تعانق فيكِ الطير والشجرا

وما وقفت ولا أوقفتُ راحلتي ... رغم الهواجر حتى جئتُ مؤتزرا

يا مكة الخير جرحي ما له شبهٌ ... ومن سواكِ لنا في المحنة انتصرا؟

أقبلت معتذرا عن كل ناقصةٍ ... فلا تصدّي فقيراً جاء معتذرا

طينٌ أنا وعواء الطين في جسدي ... لكن روحيَ تأبى الطين والكدرا

إذا سلكتُ طريقي صدّني سفهي ... وكلما حنّ قلبي للهدى نفرا

يسطو الظلام على فجري فيطمسه ... ويسطع النور في القلب الذي انكسرا

هو الصراع يقينٌ شمسه سطعت ... وباطلٌ لا يرى شمساً ولا قمرا

* * *

يا مكة الخير لي عهدٌ ولي ثقةٌ ... أن السلام والعقبى لمن صبرا

فلا رأينا بمن مرّوا بنا عبراً ... ولا قرأنا لمن خطوا لنا سيرا

ولا أسِفنا على عمرٍ يضيع سدى ... ولا أبهنا لنارٍ تقذف الشررا

كأن زمزم لا يشفى بها سقمٌ ... ولا المآذن منها النور قد بهرا

سكرتُ لما رأيت البيت مؤتلقا ... ويشهد الله أني لم أذق سكرا

لكنه الحب قد طابت مواسمه ... وحبّ صاحب كفٌ ترفع الحجرا

هنا أمرّغ وجهي دونما حرجٍ ... وأذرف الدمع منظوماً ومنتثرا

هنا أقول: لعلّ الله يغفر لي ... ولا أشك بأن الله قد غفرا

أشم تُربكِ ريحُ المسك ينفحني ... وأستغيث فيأتي غوثه مطرا